

تفسير البحر المحيط

. @ 399 @

وقرأ الأعمش والأعرج وزيد بن علي وعيسى وأبو حيوة وعاصم في رواية : { لِّلْأَمِّ كَذَّبِينَ }
هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ } ، بفتح الميم ؛ والجمهور : برفعها . قال ابن عطية : لما
أضاف إلى غير متمكن بناه فهي فتحة بناء ، وهي في موضع رفع . وقال صاحب اللوامح : قال
عيسى : هي لغة سفلى مضر ، يعني بناءهم يوم مع لا على الفتح ، لأنهم جعلوا يوم مع لا كالاسم
الواحد ، فهو في موضع رفع لأنه خبر المبتدأ . انتهى . والجملة المصدرة بمضارع مثبت أو
منفي لا يجيز البصريون في الطرف المضاف إليها البناء بوجه ، وإنما هذا مذهب كوفي . قال
صاحب اللوامح : ويجوز أن يكون نصباً صحيحاً على الطرف ، فيصير هذا إشارة إلى ما تقدمه
من الكلام دون إشارة إلى يوم ، ويكون العامل في نصب يوم نداء تقدمه من صفة جهنم ،
ورميها بالشر في يوم لا ينطقون ، فيكون يومئذ كلام معترض لا يمنع من تفريغ العامل
للمعمول ، كما كانت { فَيَأْتِيْءُ الْآءِ رَبُّكُمْ مَّا تُكَذِّبَانِ * ذَوَاتَا أَفْوَاجٍ } .
انتهى . وقال ابن عطية : ويحتمل أن يكون ظرفاً ، وتكون الإشارة بهذا إلى رميها بشر .
وقال الزمخشري : ونصبه الأعمش ، أي هذا الذي قص عليكم واقع يومئذ ، وهنا نفي نطقهم .
وقد أخبرنا تعالى عنهم أنهم نطقوا في مواضع من هذا اليوم ، وذلك باعتبار طول اليوم ،
فيصح أن ينفي القول فيه في وقت ويثبت في وقت ، أو نفي نطقهم بحجة تنفع وجعل نطقهم بما
لا ينفع كلا نطق . .

وقرأ القراء كلهم فيما أعلم : { وَلَا يُوْذَنُ } مبنياً للمفعول . وحكى أبو علي
الأهوازي أن زيد بن علي قرأ : ولا يأذن ، مبنياً للفاعل ، أي ائذني تعالى ، {
فَيَعْتَذِرُونَ } : عطف على { وَلَا يُوْذَنُ } داخل في حيز نفي الإذن ، أي فلا إذن
فاعتذار ، ولم يجعل الاعتذار متسبباً عن الإذن فينصب . وقال ابن عطية : ولم ينصب في جواب
النفي لتشابه رؤوس الآي ، والوجهان جائزان . انتهى . فجعل امتناع النصب هو تشابه رؤوس
الآي وقال : والوجهان جائزان ، فظهر من كلامه استواء الرفع والنصب وأن معناهما واحد ،
وليس كذلك لأن الرفع كما ذكرنا لا يكون متسبباً بل صريح عطف ، والنصب يكون فيه متسبباً
فاfterاً . وذهب أبو الحجاج الأعلم إلى أن قد يرفع الفعل ويكون معناه المنصوب بعد الفاء
وذلك قليل ، وإنما جعل النحويون معنى الرفع غير معنى النصب رعيّاً للأكثر في كلام العرب ،
وجعل دليله ذلك ، وهذه الآية كظاهر كلام ابن عطية ، وقد رد ذلك عليه ابن عصفور وغيره . .
{ هَذَا يَوْمٌ الْفَصْلُ جَمَعَ عَذَابُكُمْ } للكفار ، { وَالْآوَّلِينَ } : قوم نوح

عليه السلام وغيرهم من الكفار الذين تقدم زمانهم على زمان المخاطبين ، أي جمعناكم للفصل بين السعداء والأشقياء . { فَلَا يَنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ } : أي في هذا اليوم ، كما كان لكم في الدنيا ما تكيدون به دين الله وأوليائه ، { فَكَيْدُونَ } اليوم ، وهذا تعجيز لهم وتوبيخ . ولما كان في سورة الإنسان ذكر نزراً من أحوال الكفار في الآخرة ، وأطنب في وصف أحوال المؤمنين فيها ، جاء في هذه السورة الإطناب في وصف الكفار والإيجاز في وصف المؤمنين ، فوقع بذلك الاعتدال بين السورتين . وقرأ الجمهور : { فِي ظِلَالٍ } جمع ظل ؛ والأعمش : في ظلل جمع ظلة . { كُلُّواْ وَاشْرَبُواْ } : خطاب لهم في الآخرة على إضمار القول ، ويدل عليه { بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } . { كُلُّواْ وَتَمَتَّعُواْ } : خطاب للكفار في الدنيا ، { قَلِيلًا } : أي زماناً قليلاً ، إذ قصارى أكلكم وتمتعكم الموت ، وهو خطاب تهديد لمن أجرم من قريش وغيرهم . .

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُواْ } : من قال إنها مكية ، قال هي في قريش ؛ ومن قال إن هذه الآية مدنية ، قال هي في المنافقين . وقال مقاتل : نزلت في ثقيف ، قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم) : حط عنا الصلاة فإننا لا ننحني إنها مسبة ، فأبى وقال : (لا خير في دين لا صلاة فيه) . ومعنى اركعوا : اخشعوا وتواضعوا له بقبول وحيه . وقيل : الركوع هنا عبارة عن الصلاة ؛ وخص من أفعالها الركوع ، لأن العرب كانوا يأنفون من الركوع والسجود . وجاء في هذه السورة بعد كل جملة قوله : { وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ كَذَّبِينَ } ، لأن كل جملة منها فيها إخبار الله تعالى عن أشياء من أحوال الآخرة وتقريرات من أحوال الدنيا ، فناسب أن نذكر الوعيد عقيب كل جملة منها للمكذب بالويل في يوم الآخرة . والضمير في { بَعْدَهُ } عائد على القرآن ، والمعنى أنه قد تضمن من